الأبعاد التاريخية لأزمة الفكر العربي المعاصر في ضوء المتغيرات الجديدة

للأستاذ الدكتور شاكر مصطفى
أستاذ في جامعة الكويت سابقا
سوريا

الملخص

أزمة الفكر العربي المعاصر موضوع يشغل بال المفكرين العرب من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق يسمونه تارة بالمأزق العربي وتارة بالتحديات المصيرية وطورًا بالأزمة الفكرية. وقد يمضي بعضهم في التشاؤم لدرجة الحديث عن خروج العرب من التاريخ!

هذا الشعور العام ليس بالجديد وبخاصة مع إشرافنا على حافة القرن الحادي والعشرين. وعلى الرغم من صراخ المفكرين والسياسيين ورجال الاعلام والشعراء والكتاب فالأزمة بقيت تراوح في مكانها. في حين يقفز الفكر العالمي قفزات الجبابرة نحو المستقبل.. فهل لهذه الأزمةمن جذور؟ وما هي؟ ليس عبثًا أن نسأل. وهكذا قد يمكن الحديث عن خمسة منابع لها أو أبعاد:

التقاليد الموروثة عبر العصور، والإرث المملوكي العثماني، وانحراف عناصر النهضة ومدتها والنير الاستعماري مع الصهيونية، وأخيرًا صراع عصر الاستقلالات مع عناصر الإحباط.

«ليس المطلوب مني في هذه الورقة بحث أمجاد الفكر العربي، ولكن البحث عن معوقاته التاريخية. وهذا يعني بالضرورة الكلام فقط عن السلبيات لا الإيجابيات فيه. فلا يحاسبني منتقد ويتهمني برسم الصورة الجهمة والعقيم لهذا الفكر. فالحديث في غير ذلك ليس من موضوعي».

أرجو، قبل البدء أن يسمح لي بملاحظتين اثنتين حول الموضوع: فيبدو أولاً أن المشروع المرسوم للندوة ومحاورها قد جاء عامدًا يحمل الطابع السياسي فقط. فالتفاصيل المرافقة للدعوة تدور حول مناقشة الاشتراكية والأصولية والشيوعية والتيار السلفي الإسلامي، القومي العروبي والعلماني والمتغيرات الدولية.. حتى حرب الخليج. والفكر، فيما أعرف وتعرفون، بما هو فكر، أوسع من ذلك بكثير، إنه يشمل آفاق الإنسان من اجتماعية وعلمية واقتصادية وأدبية وفنية ودينية. إنه شمولي يطل عليه من كل زاوية. وبشكل مشتبك. وسنحاول قدر الطاقة التوجه إلى الناحية السياسية منه بخاصة.

الملاحظة الثانية أن مشروع الندوة افترض مسبقًا وجود أزمة فكر. كأنما وضع الجواب قبل السؤال. والذي نعرفه أن الفكر سواء في حالة الإبداع أم الخمول هو دومًا في أزمة: أزمة خلق أو تعثر خلق. العقل جهاز حركة دائمة. لا يتوقف. وإفرازه الفكري هو على الدوام في حالة تغيير وابتداع للجديد سواء كان هذا الجديد نظرية اينشتاين، أم صنع جرة من فخار، أم صراع فكرة مع أخرى. الفكر لا يقف. لو توقف مات. إنه دومًا في حالة أخذ وعطاء، في قفز من معطيات إلى أخرى. الأزمة إذن موجودة دومًا وأبدًا. والسؤال هو عن عطاء الفكر. عن تدني إنتاجه. عن السبب في محدودية آفاقه وتقزم إبداعه. وعن حالة الحصار التي يعيشها بالنسبة للفكر العالمي. وعن شتات هذا الإنتاج وضياعه العنيف بعضه عن بعض في الميدان السياسي خاصة.

ضمن إطار هاتين الملاحظتين يبدو أنه على المدى الجغرافي المحدود مابين

أقصى عمان وأقصى نواكشوط هناك شعور عام بخطر قريب مبهم تدور له الأعين في الآفاق، وتحس به حتى الأعين الرمداء، والأكثرية المقطوعة الألسن. يسميه بعضهم بالأمن القومي وبعض بالأزمة الفكرية وبعض بالمأزق العربي وبعض بالتحديات المصيرية. وقد يمضي قوم مع التشاؤم حتى النهاية فيتحدثون عن «خروج العرب من التاريخ». ويبحثون في أي مكان سيدفنون!! تعددت الأسماء والأمر واحد.

هذا الشعور ليس بالجديد. لقد تراكم وتفاعلت عناصره بعضها مع بعض حالاً على حال، منذ عدة عقود. فالأمة العربية، على حافة القرن الحادي والعشرين ضياع. شراع دون بوصلة، واليم اختباط وعواصف سوداء:

فليست تحيط بما تبتغي وليست تلم بما تعلم!

مفكرون، سياسيون، علماء اجتماع، رجال إعلام، أساتذة جامعات، كتاب ينذرون، شعراء يصرخون، مؤتمرات تعقد، تعد منها ما يزيد على ٤٢ مؤتمرا منذ سنة ١٩٨٠ في مختلف المناطق والجامعات والمراكز. وكتب بعد كتب تصدر ومقالات تملأ الرحب. والنتيجة دوران في الفراغ. وبقيت المشكلة هي المشكلة. بل أخذت المنحى الخطير بعد أن أخذ الفكر العالمي يقفز قفزات الجبابرة في كل الاتجاهات، ويتركنا في الغبار.

ويأتي ثقل المشكلة واستعصاؤها من أنها ليست عابرة ولكنها مزمنة. وتستقى من ينابيع شتى، ولها كما لكل إشكالية عريقة تاريخ تجره وراءها، وجذور معقدة التركيب. وعلى مستويات عديدة من التأثير والقدم ، كجذور شجر الدلب العظيم تلتوي فيه الأغصان لتصبح جذورًا كاذبة. ويشتبك فيها الفرعي مع الأساسي، والجذر الحي مع الميت المتفسخ، والرئيسي بالثانوي في تعقيد لا ينتهي.

وليس البحث في الأصول الأولى للأزمة فضولاً ولا إضاعة وقت. إن تحليل مكوناتها المتشابكة، والتي لا يجب أن يغيب عن بالنا أنها دائمة التحول والتشابك، شرط لعلاجها. اللاتاريخية في تحليل الفكر لا تعطينا سوى رؤية مسطحة ذات

بعدين، لواقع ذي أبعاد أربعة. على أننا سنحاول ضغط البحث في جذور الأزمة ما استطعنا دون أن ننسى أن بعضها قديم مستمر وبعضها من نبت بعض عصور التخلف، وبعضها كامن ضمن قواقع جاهزة حتى للهجوم. كما أنها مختلفة في الوجود الكثيف والغياب حسب الأقطار العربية. وبعض منها استعماري غريب مفروض. وتجزئتها لا تعني أنها ليست كلاً واحدًا يتفاعل بعضه مع بعض، ويعمل في كيان واحد هدام.

ويمكن مع شيء من الإجمال لا الحصر تعداد خمسة أبعاد أو جذور نطل منها على قصورنا في الإبداع الفكري. وقد يكون بعضها بعيدًا وغير واضح الأثر يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.. وبعضها واضح الوجود يكبل الفكر وينجر وراء الأقدام كقيود السجناء القدامى. كما أن بعضها منا ومن تقاليدنا. وبعضها فرضته علينا الظروف التي مرت بنا، ومن ذلك:

١ ـ التقاليد الفكرية الموروثة عبر العصور.

٢ ـ الإرث التركي (المملوكي العثماني).

٣ ـ انحراف عناصر النهضة والتنوير واختفاؤها.

٤ ـ النير الاستعماري وآثاره. وكانت قمته في الصهيونية.

٥ ـ صراع عصر الاستقلالات مع الإحباطات المختلفة والمستجدات الحديثة.

- ١ -

البعد الأول: يتصل بعلاقة الفكر العربي بالتاريخ أو على الأصح علاقته بمسيرة الزمن وبرسوخ التقاليد. إن علاقتنا بالزمن ليست كأي علاقة لأمة بتوالي أزمانها. نحن العرب نعيش الماضي في الحاضر دون شعور بالتباين بينهما. حياتنا الاجتماعية والفكرية نتاج مجتمعات قومية مكثفة شديدة التماسك مع الماضي. وهي تركيبية البنية، جدلية الوجود التاريخي. ترفض تفتيت الزمن إلى وحدات

متسلسلة. أو النظر إليه على أنه امتداد متصل بعيد الجذور. إنها تعتبره حضورًا مستمراً في نظرة دمجية واحدة. ولقد اعتدنا العيش مع التاريخ حتى كأنه يشكل مع الحاضر وحدة تركيبية واحدة. نحن نسقط الزمن من حسابنا الفكري. وبحثنا عن الأصالة لا يتصل بتجاوز الذات إلى المستقبل. ولكن بالبحث عن الأنا التائهة في الماضي[1] وبخاصة في فترات الشدة. ثم إن هذه «اللاتاريخية» أو «اللازمنية» ما تنفك بجانب رجعيتها سكونية. فنحن لا ننظر إلى التاريخ على أنه نقاط انطلاق ولكن على أنه حدود انتهاء. لا نعتبره إمكانًا ممدودًا مفتوحًا ولكن صورًا لا متطورة ذات بعد أحادي، يتجمع كله حيا في لحظة واحدة. وفي مستوى سطح واحد لا غد له. ومن هنا كان التاريخ مهربًا. وكانت الأصالة تكرارًا وتقليدًا لما كان وتحمل دومًا هذا المعنى الماضوي، وكانت مشكلة التراث من مشاكلنا الفكرية الصخرية. وكان الغيبي (الميتافيزيكي) يحل بسهولة محل الطبيعة و (الفيزيكي).

وننفصم باستمرار عن العصر كأن لا وجود للزمن وتحولاته في ايديولوجيتنا الفكرية والاجتماعية، ونعيش مشاكلنا القديمة جدا مع الحديثة كأنما وجدت معها. نفتقد حس الزمن وأبعاده ـ فالزمن ركود ـ وفي هويتنا الثقافية تتداخل العصور. وتتنافس الأفكار القديمة مع الحديثة على قدم المساواة. ولا نجد فرقًا في مناقشة مسألة من فقه أبي حنيفة مع مايقابلها من المعاملات المعاصرة. ونناقش مقتل عثمان أو ظلم الحجاج بالحماسة نفسها التي نناقش مقتل السادات أو ظلم بعض الحكام. ونشعر ونحن نتمطق بالشعر الجاهلي كأننا في جونا الطبيعي، ولسنا نردد ما قيل قبل ألف وخمسمائة عام! حضور الماضي اللازماني يدخل في صميم تكويننا الفكري، ويمتد حتى لنشرد أحيانًا في الماضي اللامكاني أيضًا بين بغداد والقاهرة وفاس وقرطبة ونيسابور.. دون أن نلاحظ الفرق بينهما فهي نسيج واحد فقد بعده المكاني كما فقد الزماني.

وهكذا لا يلغي اللاحق من الزمان السابق له، كمسيرة تاريخية طبيعية، ولكن

يحل فيه ويندمج معه، ويكون جزءاً منه. فالتراث الفكري لكل منا مجموعة صور من عصور شتى حاضرة دومًا للاستشهاد والترديد. ينطق فيها الأصمعي كما يتربع الجاحظ وابن جني مع ابن سيده! ولا نحس برحلة فكرية ما بين غناء عمر بن أبي ربيعة:

كتبت إليك من بلدي كتاب موله كمد

كئيب واكف العينين بالحسرات منفرد

يؤرقه لهيب الشوق بين السحر والكبد

فيمسك قلبه بيد ويمسح دمعه بيد

وبين أي قصيدة لنزار قباني! أو عمر أبي ريشة!

بهذا التكاثف الزماني (أو الإلغاء الزمني المتمادي وإسقاط الزمن من الحساب) يتحول تاريخنا الفكري إلى صور من بعدين، تفتقد السيولة والأرجل المتحركة وفكرة الحركة. تفتقد الحياة. وتنسى أن الفكر كالماء إذا ركد أسن. وأنه يحتاج دومًا إلى غد جديد وإلا انتحر. أو عطل القديم منه الجديد فتوقف!

وثم جانب آخر في التقاليد الفكرية الموروثة هو تساوق قيم البداوة والتجارة مع القيم السلبية السكونية في موكب واحد في الناس. فجوار البوادي والصحاري للوطن العربي جعله على الدوام عرضة للزحوف البدوية بين فترة وأخرى، بشكل كثيف. وكلما تحضرت من هذه الزحوف أجيال غشى الحضر أجيال غيرها تعيد القيم البدوية إلى سابق عهدها، وتحييها، وهكذا بقيت الأسرة الأبوية دائمة الوجود. والطاعة «للأب» ولأولي الأمر هي سيدة القيم. وبقي اتصال الشخصية العربية بالبداوة عميقًا متينًا.. فربع سكان الوطن العربي من البدو الرحل، في البادية وعلى أطرافها القروية. والعقلية البدوية يستهلكها البحث عن الكلأ والماء ويستهويها الخصب وكره العمل واحتقار الصناعة. ولا يشوقها العمق في الأمور لأنه لا جذور

لها في الأرض. ثم إنها طبعت على الترحال وعلى الكسب اليومي، والفكر يحتاج الاستقرار والمتابعة والحساب للآتي واحترام القانون.. وماتزال، حتى مجتمعات المدن، متأثرة في أجوائها بقيم البداوة رغم اندثار موجباتها.

ولقد أتى على العرب حين من الدهر اندمجوا فيه بعد الإسلام مع الشعوب الحضرية الأخرى. وتحولت أنساب الكثيرين منهم من المحاور الأبوية إلى أسماء الصناعات التي اتخذوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة. ولكن المصائب (السلجوقية والصليبية والمغولية) ردتهم إلى التجارة واستغلال الطرق بدل استغلال الثروة الزراعية والمهارة اليدوية. وصارت القيمة الكبرى في المدن للتجارة يؤيد ذلك موكب من المأثور الديني فيه أن الرسول الأعظم كان تاجرًا، وأن البركة في التجارة، وأن قريشًا تجار. والحضارة العربية في أوجها كان التاجر المسلم رمزها. والعقلية التجارية ليس من شيمها عمق الفكر ولا مناقشته ولكن نقله ومبادلته. والتاجر مادة وربح. والفكر عقل وروح وتجاوز.

وأما الريف العربي فسيطرت عليه منذ قرون القيم السلبية السكونية، بدل القيم الإيجابية الديناميكية التي يأمر بها الإسلام. ولا شك أن توالي العسف والظلم قرونًا طويلة على الريف وأهله جعل هذه القيم طباعًا ثانية في جلد وشرايين هذه الطبقة الواسعة جدًا من العرب. وصار الممنوع هو الأساس في المجتمع لا المسموح. وصار الجسد موضوع الشرف لا الروح. وحلت الطاعة لأولي الأمر محل الكرامة الإنسانية. وصارت القناعة بالمقسوم والنفاق والعجز والقدر المقدور والحظ ملاجىء للناس، بدل العمل والمسؤولية والحرية والتعاون والعدل والتفكير وطلب العلم. وقد تسرب الكثير، مع الأيام، من هذه القيم السكونية إلى الحضر، لأنها أسلم وأخف خطرًا وحملاً. ونجم عن ذلك رسوخ الاستعداد العقلي، لدى الأكثرية الصامتة، للتلقي والتلقين والوقوف عند النص المكتوب. والتعامل مع التراث على أنه مقدس لا يمس. وتحتشد وراء هذه القيم زمر من الأمثال والمقولات لا تنتهي دعمًا وتأييدًا: لا

تفكر. الله يدبر، لو جريت جري الوحوش غير رزقك ما تحوش، لا تتعب قلبك بالحساب، ربك هو الغلاب! القناعة كنز لا يفنى..

- ٢ -

ونصل إلى النتيجة نفسها لو نظرنا إلى الأمر من وجهة تكوين الثقافة العربية. وثقافتنا الفكرية (التي تكون بنية العقل العربي) هي في التحليل الأخير مكونة من مسارات ثلاثة:

- علوم البيان وفيها القرآن والتفسير والحديث والنحو واللغة والشعر والأدب والعروض (علوم الآلات كما يقولون) مع النقد والبلاغة والتاريخ.
- علوم العرفان وفيها الفلسفة والمنطق والميتافيزيك وعلم الكلام والتصوف بأبعاده.
- علوم البرهان وتشمل الطب والرياضيات والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك والنبات والحساب والجيولوجيا..

ففي القرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام تكاملت، على تفاوت في الكمال، علوم البيان نتيجة الحاجة إلى تفسير القرآن وفهمه. ووضعت قواعدها وقوانينها ولم يكن بالإمكان أن يزاد عليها شيء. وتوقفت عن التطور والعطاء الجديد، وكان ذلك طبيعيًا بحكم تكوينها نفسه وحدود مواضيعها.

في أثناء ذلك كانت علوم البرهان وعلوم العرفان تبدأ النمو والتطور منذ العهد الأموي مع يزيد بن معاوية والحسن البصري والجعد بن درهم. ثم أيام المنصور والرشيد والمأمون. وظهر الخوارزمي باللوغاريتمات وجابر بن حيان بالكيمياء وآل بختيشوع في الطب والكندي في الفلسفة.. واستمر المد العلمي والفكري يتصاعد حتى نهاية القرن الرابع للهجرة - يرمز إلى ذلك ابن سينا - كان الفكر العربي حينذاك هو الفكر العالمي.

وحدث بعد ذلك الخسف العلمي الأول بدخول مجموعة ضخمة جداً من

البدو الترك (السلاجقة) إلى العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري وجرى الانقلاب الأول. توقّفت إلى حد كبير، علوم البرهان عن التطور، وبدأت علوم العرفان بالانحراف إلى التصوف الغيبي الميتافيزيكي. ثم جاءت منذ القرن السادس ضربات الصليبيين ثم المغول والتتر لتدمر الفكر العربي وتصرف همه من العلوم والفلسفة إلى عمليات الدفاع عن الذات ولملمة التراث. انصرف الفكر، في انكماش دفاعي، إلى تثبيت الماضي بالتكرار. وإلى التمسك بالنص خوف الزيغ وإلى الاتباع والمبالغة فيه. كما انصرف عن الفلسفة إلى الغيبيات الصوفية صار «المجاهد» لا العالم هو نجم المجتمع الإسلامي ومعقد أمله. وظهرت الموسوعات، في العلوم وفي الرجال، كأنها محاولة للحفاظ على التراث أن يتبدد مع الخطر الداهم. وغمرت نبعة الإبداع بغبار المعارك. وكثرت الأبنية الدينية (من أربطة وخانقاوات ومساجد) وتكاثرت جماعات علوم البيان على حساب العلوم الأخرى. وأغلق باب الاجتهاد خوفًا من الزلل والزيغ..

مرحلة الانقطاع الفكري هنا كانت، والمشكلة الكبيرة أنها طالت وطالت أربعة قرون. توضعت خلالها ألوان من تقاليد الاتباع والنص والحذر العلمي. وتشكلت أجيال متوالية من علماء الاتباع والنص والانحراف الصوفي. وزاد في المشكلة أن الفاطميين الذين افتتحوا في القاهرة «جامعة» للفكر الإسلامي هي الأزهر وجّهوها الوجهة الدينية الباطنية. وغالوا في المتاهات الميتافيزيكية الغيبية. وقابلهم أهل السنة في الشام والعراق وإيران بإنشاء «المدارس» التي كان همها تخريج الشيوخ الدينيين الرسميين الذين يتولون بجانب حفظ الدين إدارة الدولة ويدافعون عن ايديولوجيتها السنية. كانت هذه المدارس قلاع المحافظة على «النص» وعلى التمسك بالتراث. تؤيدها في ذلك الفرق الصوفية التي نقلت الناس إلى العالم الغيبي. وصارت بدورها تكثر وتفرخ مبتعدة بالفكر عن واقع الحياة.

وفي هذه الأثناء كان الحكام طبقة من المماليك المحاربين الجهلة، شكّلوا طبقة

استبدادية عسكرية أجنبية كتيمة. لا تفقه من الإسلام إلا المظاهر. وقد اندفعت تؤيد الشيوخ في إهمال علوم البرهان خاصة والمبالغة في علوم البيان وتأييد علوم العرفان بمسارها الصوفي. وصارت التجارة ونقلها مصدر الثروة الأول. وسد الجهل المملوكي الطريق أمام أي تنمية أو تحول إلى رأسمالية تتسم بالتقدم. وشاركتها بيروقراطية الدولة والتجار والعلماء المغلقون في الانكفاء على الذات. وفي إضفاء الشرعية على الحكام بوصفهم المدافعين عن الدين. أما الدين نفسه فصار كتبًا صفراء ونصوصًا متزمتة وغرقًا في الحرفية. وتشكلت فيه طبقة من «الكهنوت» الزائف صارت لها الأزياء الخاصة والمناصب والارتزاق. تبدأ بقاضي القضاة أو بشيخ الصوفية وتنتهي بخادم الجامع، وتبتلع ريع الأرض التي تحول معظمها أوقافًا دينية. وغاب حتى الشعراء والكتاب الكبار وصار من الشواذ ظهور العلماء الأعلام كابن تيمية والعز بن عبدالسلام وابن قيم الجوزية فالباقون هم من يعلكون النحو أو ينظمون الأراجيز في اختصار العلوم ويقرزمون النظم في الألغاز والحزازير، أو يؤلفون في التعريف بالعلوم كتبًا تقرأ كلماتها طولانيًا فهي علم. وتقرأ عرضانيًا فهي علم آخر! فيما يشبه الكلمات المتقاطعة.

وتلت الفترة المملوكية الفترة العثمانية لتكمل الانقطاع الفكري السابق بانقطاع آخر من مثله. الإدارة العثمانية بدورها إدارة عسكرية استبدادية أجنبية. كان الدفاع عن الدين في أول أمرها هجومًا وقتالاً وسيطرة على مناطق الفتوح للابتزاز الضرائبي. ثم صار بعد ذلك محاولة للحفاظ على الحدود دون كفاية. فالرجل المريض وقع في براثن القوى الأوروبية الاستعمارية المتحفزة مع نظامها الرأسمالي لابتلاعه. وتواكب الضعف العثماني المتزايد مع نهضة أوروبا بالمقابل. سواء بتدفق الذهب الأمريكي عليها، أم بالنهب الاستعماري للقارات الأخرى، أم بظهور الرأسمالية الجشعة في داخلها كنظام عالمي قومي في وقت واحد. وفيما كان شمال أفريقيا العربي يكافح الهجمات الصليبية الاستعمارية، وكان العالم العثماني بما فيه المناطق العربية ينكمش في قواقعه باسم الحفاظ على الدين. ويفتقر ويتخلّف ماديًا

وعسكريًا بطرائقه في الانتاج، واستراتيجيته الحربية القديمة، وترهل كيانه، وفساد جنده وإدارته الاستبدادية. كان فائض رأس المال يتراكم في أوروبا ويستغل في كشف أسواق جديدة. وفي تنويع مصادره من المواد الأولية في العالم كله. ويزداد قوة وشراسة مع فيض الغنى وكثافة الامتصاص لموارد الشعوب الأخرى، وتطور القوة العسكرية، ومبتكرات الفكر.

وانقسم المجتمع العثماني قسمين: فمن جهة: بيروقراطية عسكرية للإدارة همها فرض الضرائب وجباية المال يساعدها رجال الدين بتخدير الناس، وتعميق الفروق الطائفية، وابتزاز المزيد من الأوقاف، والغرق في الغيب الصوفي. ومن الجهة الأخرى كانت الرعية. وهي البقرة الحلوب تدفع لتشبع كل أهواء الطبقة الأولى. وعليها الإنتاج وأعمال الري، ورعاية الحرف، والقيام بالتعليم إن شاءت، وبالسخرة لمشاريع الولاة.. فخزانة الدولة وجيوب رعاياها وغرق العالم العربي في المحيط المتجمد العثماني!

- ٣ -

هكذا اصطدم العالم العربي بالعصر الحديث في معركة الجيزة. ووقف السيف المذهب اللامع ضد دوي المدافع. ونزلت آلية عسكرية كاملة التجهيز لتواجه خيولاً مطهمة، ودفاعًا كاريكاتوريًا، وفكرًا من العصور المنصرمة ملأه الذعر من الإعداد العسكري والاقتصادي والعلمي للعصر الحديث. فيما كان رجاله يرفعون أيديهم بالدعاء للسلطان بالنصر: «بادشاهم جوق يشاه». ولعل الفكر العثماني لم تظهر فيه من ملامح اللمعان الإبداعي سوى العمران بسبب بناء القلاع والحصون والمساجد. ولم يبق فيه من معالم الفنون إلا الموسيقى للرقص الصوفي! وكتابة القرآن بالرسم العثماني!

أما الفكر فكان يدور في حلقة مفرغة. يكرر نفسه في الحواشي والذيول والتعليق. أرأيت كيف يلعق القط دمه عن الميرد وهو يحسبه الغذاء الدسم؟ أدار

الفكر في العهد العثماني ظهره لأوروبا تماما. وحسب أن النجاة، نجاة الآخرة لا الدنيا. وأن الانكماش على الذات والتقوقع وتفسير الكون الغيبي هي الطريق إلى الحقيقة الكبرى وإلى الله! كان العالم العثماني بذلك «جنة» السكون! وأيامًا متشابهة مكرورة إلى ما شاء الله.

ولعلنا نضيف إلى هذا الفكر الثقافي الموروث الذي وصل عصر النهضة والتنوير ثلاثة أمور:

الأول أنه كان يفتقد حس المستقبل، فالمستقبل لديه واحد هو يوم القيامة والحساب «يوم تجزي كل نفس ما كسبت». وتحاسب بمفردها. مما يعني أنه ليس هناك فكر جماعي وتيار شامل، ولكن تفكير فردي ذاتي نرى إحصاءه في كتب الوفيات والطبقات.

الثاني: أن جانب العلوم البحتة (البرهانية) من الفكر كان خلال العصرين المملوكي والعثماني يضمر تمامًا. كان الطريق إليها مسدودًا بحاجات أخرى أخروية. ومناهج البحث لا علاقة لها بالحاجة إلى المال والمخابر ولا إلى التجربة والاستقراء ولا إلى الواقع والطبيعة. كان الفكر العثماني مقتنعًا كل الاقتناع بما كان ينتج من شعر هزيل وأدب أهزل وإفراز لفظي وجدل فقهي مسكين، وأن الطريق إلى الحقيقة الإلهية لا يمر بالعلم «فالعلم عند الله». ولكن بالدروشة وبالرقص حول الذات. كان الطريقان بين أوروبا والعالم العثماني مختلفين: طريق يتجه إلى الواقع والطبيعة وأسرارها وطريق يتجه إلى الغيب والراحة الدينية والجمود.

الثالث: أن الفكر كان يفتقد الربط، في العصر العثماني خاصة بين عناصره. انقطعت الصلة بين العلوم المختلفة. الموسوعية السابقة في العصور التي خلت لم تعد موجودة. تجزأت حتى علوم البيان والدين. فالمذاهب الفقهية منفصلة عن النحوية وعن مذاهب الكلام. ولهذا صارت الخصومة بينها هي الأساس لا الاتفاق. أما علوم العرفان فلم يبق قائمًا منها سوى التصوف. أما العلوم البحتة فكانت أرضًا مواتًا لم

يصمد فيها، ولأسباب عملية، سوى الطب القديم.

وعلى الرغم من اتصال عدد من الأقطار العربية بالعالم الأوروبي منذ القرن السابع عشر فإن الضربة القوية في هذا الاتصال إنما كانت في معركة الجيزة. وكانت الضربة مأسوية لدرجة أكبر بكثير من وقع مدافعها الحديثة. وتفتحت الأعين على عالم آخر قوي جشع كسر السيف المملوكي وغمده. وأسهمت إصلاحات محمد علي وتجار الشام وتونس ومقاومة الصليبيات الشرسة في المغرب كلها في التعرف على هذا العالم وشهدت في جسدها تكالبه للسيطرة على الدنيا بما فيها الوطن العربي أنى استطاع..

القرن التاسع عشر كله كان عصر «النهضة» ـ كما اصطلح على تسميته ـ وعصر المصائب في وقت معا ـ كان عصر الاتصال المتزايد مع أوروبا وعصر المعاناة المريرة معها. ترافق الانقلاب الفكري النهضوي فيه مع تفاقم الجشع الاستعماري الأوروبي. وفيما كان هذا الانقلاب يكسب المزيد من الأرض والناس نتيجة الإعجاب بالقوة، والتقدم والازدهار في الغرب، كانت الحرب تستشرى ـ وإن تكن خاسرة دوما ـ في كل مكان ضده: في الجزائر، في تونس، في المغرب، في مصر ثم في ليبيا بعد ذلك وفي الشام كله والعراق والسودان وبعض أطراف الجزيرة. كان التناقض صارخًا بين ما يحفل به من المعارف والفكر وما يعلنه من المبادئ، وما يملك من الفنون والحضارة والآداب، وبين أساليبه الشرسة في قهر الشعوب وافتراسها. وحسب رجال النهضة أن الفكر الأوروبي بضاعة قابلة للاقتباس. فأقبلوا على تقليد كل شيء، حتى الملابس وقص الشعر وبناء «الأوبرا» والمطالبة بالحرية! حاولوا الالتفاف عليه من الخلف، من باب الفكر.

وهنا وقع الانفصام الفكري الأساسي في الذات العربية بين الدين، المتجذر عميقًا في الصدور وبين العلمانية الأوروبية التي أزاحت الكنيسة عن مركز الاهتمام والتأثير. حاول محمد علي التجديد في الطب وفي نظام «الجهادية» العسكري.

ولكن الفكر العربي ظلّ مثقلاً بألوان التخلف عن العصر. يفكر رجعيًا ويكتب الحواشي والهوامش. الكتلة البشرية العربية كانت في تباعدها وكثرتها وقلة المتعلمين فيها أثقل بكثير من أن تحركها صيحات التنوير المحدودة في مصر وتونس والشام مع تدخل الضغط الاستعماري. حتى محاولات العلماء الدينيين من أمثال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا والكواكبي لم تنفع في هز الكتلة الصامتة.

وظهر الانفصام بوضوح حين أنشئت في مطلع هذا القرن الجامعة المصرية على أسس حديثة، وبأساتذة أغلبهم من أوروبا. ما انتبه الذين أنشأوها أنهم بذلك شقوا الفكر العربي شطرين. شطر مع الجامعة وشطر مع الأزهر تلك الجامعة القديمة التي حملت الفكر الإسلامي ألف سنة. لم يحاولوا تطوير هذه المؤسسة الضخمة. واختاروا تركها تعمل ليبدأوا الطريق من جديد. وظهرت بذلك مدرستان في الفكر العربي مازالتا حيتين حتى اليوم. وحتى ضمن الجامعة الواحدة في أنحاء الوطن العربي.واحدة تمثلها كلية الشريعة والثانية باسم كلية العلوم. هذه الازدواجية تقوم في جذر ما نشهد اليوم من اتجاه إسلامي (أصولي أو سلفي أو صوفي) وبين الاتجاه العلماني بمختلف تياراته (من ليبرالية واشتراكية وماركسية) مسار الفكر الغربي علمًا وحياة وسياسة وأدباً وفلسفة فكر يفصل الدين عن الدولة. في حين ليس من فصل مثله في الإسلام. والانسراب من الديني إلى الدنيوي سهل فيه. ومن هنا كان التناقض الخطير عند نقل التجارب الغربية فكلها فشلت. لأنها نقلت إلى غير أرضها. كلها ليست بنت المنطق العربي المغاير. وكلها افتقدت العنصر المكون في الفكر العربي وهو التدين.

ومن الغريب أن الذين كتبوا تاريخ النهضة ورجالها أهملوا تمامًا جانب الدين ورجاله بل وأصحاب الرأي والإصلاح فيه. كتبوا تاريخ الرجال الذين تشبعوا بالثقافة الغربية وتبنوا الفكر العلماني (أحمد لطفي السيد، قاسم أمين، طه حسين،

حسين هيكل، منصور فهمي، أحمد أمين، سلامه موسى، شبلي شميل، جرجي زيدان، فؤاد صروف، عبدالرحمن الكواكبي..) ولم يكتبوا تاريخ الرجال الدينيين ولو كانوا أهل إصلاح أمثال الشيخ حسونة النواوي ومواقفه ضد اللورد كرومر، بالنسبة للقضاء الشرعي. والشيخ سليم البشري الذي أصلح الأزهر سنة ١٩١٠. والشيخ ماضي أبو العزايم الذي وقف ضد دعوة الملك فؤاد لنفسه بالخلافة سنة ١٩٢٥ ولا عن الشيخ مصطفى المراغي أو محمود شلتوت أو يوسف الدجوي أو طنطاوي جوهري أو محمد شاكر. وكلهم في مصر.. ومثلهم في الشام بدر الدين الحسني وعلي الدقر وطاهر الجزائري وهاشم الخطيب وكامل القصاب وبهجة البيطار وطاهر الأتاسي ومكي الكتاني وأبو الخير الميداني ومثلهم في الجزائر ابن باديس وغيره.. هذا الإهمال أو هذا التاريخ الانتقائي والمتحيز للفكر الوافد هو الذي يجعلنا نفاجأ بظهور الحركات الأصولية والسلفية كأنما هي نبتت فجاءة. وهي نبت ماض طويل، وردة فعل صارت موجة كبرى بعد أن هدمت الإمبريالية والصهيونية باقي المبادىء والقيم.

قبل مطالع القرن العشرين وفدت على البلاد العربية مجموعة المباديء الفكرية السياسية من الغرب دخل بعضها عن طريق بعض الزعماء العثمانيين (مدحت باشا. جمعية الاتحاد والترقي. الجمعية الطورانية) ودخل بعضها الآخر عن طريق بعض المتنورين العرب وجمعياتهم السرية. وأبرز ماكان يميز هذه الفترة تلك الحيرة التي واجه بها زعماء العرب تلك المباديء: هل يقبلون باللامركزية أو يطلبون الاستقلال الكامل؟ هل يعتمدون على فرنسا (حيث اجتمع مؤتمرهم سنة ١٩١٣) أو انكلترا (التي تجمع الهاربين منهم في مصر) أو أمريكا البعيدة؟ هل يكتفون بإعلان مباديء (حريت، عدالت، مساوات) أو يمزقون الدولة العثمانية قسمين قسم للعرب وقسم للترك؟ الدينيون وهم الأكثرية هم الذين كانوا يحاولون إيجاد صيغة للاتصال المشروط مع الترك. وهم كانوا أوجع المفجوعين يوم ألغى مصطفى كمال (الخلافة سنة ١٩٢٤) هذه الرابطة الاسلامية الواهية. وشعروا كأنما أضحت الأمة الإسلامية

كلها جسمًا بلا رأس، ونهبًا مباحًا لكل طامع.

على أن إلغاء (الخلافة) كانت الضربة الأخيرة لقتل الفكر الديني الإسلامي وضرب مقاومته. فقبل إلغائها بحوالي القرن كانت القوى الاستعمارية تقتطع قطعة بعد أخرى من الوطن العربي حتى استكملته في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٠، بعد الحرب العالمية الأولى! الفكر السياسي الذي وفد مع الاستعمار لم يكن الليبرالية والنظم الديمقراطية والحرية فحسب ولكن وفد بجانب ذلك «طاقم» القيم والأفكار السياسية الأخرى: وفدت الشيوعية وكان لها ممثلوها منذ سنة ١٩٢٢ والاشتراكية الإصلاحية. ووفدت الأفكار القومية (حتى الشوفينية العرقية) مع وصول الفاشية في العشرينيات إلى إيطاليا، وفي الثلاثينيات إلى ألمانيا.

وهكذا ظهرت الفرعونية الإقليمية في مصر والفينقية في لبنان. وظهرت عصبة العمل القومي في بلاد الشام، والحزب القومي السوري وحزب القوميين العرب.

وإذا كانت مصر أكثر الأقاليم اطمئنانًا إلى (مصريتها) وكان الفرنسيون قد قطعوا المغرب كله عن الاتصال بالعرب المشارقة فقد كانت أكثر البلاد العربية قلقًا ومذاهب فكر سياسي هو الشام. صحيح أن الفكر السائد فيه هو الفكر القومي العربي ولكن تنوع سكانه إثنيا ودينيا وطائفيا جعله يبحث دون هوادة عن هوية جامعة! وترضي الجميع.

- ٤ -

وهكذا ما خرج العرب من الإرث المملوكي العثماني إلا ليدخلوا برغمهم في النير الاستعماري وفي بحران مشتت من الفكر السياسي. واختفت تدريجيًا فكرة النهضة فبقيت هياكل جوفاء من المباديء دون قوام مادي. لأن الاستعمار الرباعي (الانكليزي الفرنسي الايطالي الاسباني) ذهب بكل قطعة يملكها من أرض العرب مذهبه الخاص في الاستعمار. فالفرنسيون يريدون تحويل الميلاد إلى فرنسا ثانية

وإحلال الثقافة الفرنسية محل ثقافتها. والإيطاليون يريدونها مجالاً حيوياً ومرتع تبشير مسيحي. والإنكليز يفضلون تركها على تخلفها وجعلها مصدر مواد أولية لمصانع مانشستر! على أن الجميع كانوا على اتفاق في تدمير كل فكر سياسي (أو حركة أو ثورة) ترفضهم أو تؤدي بأي شكل إلى زحزحة نيرهم واحتلالهم.

دام هذا في المشرق العربي أكثر من ثلاثين سنة، أما في المغرب فدام ما بين نيف وخمسين إلى ١٣٠ سنة ودام في السودان ومصر حوالي ٦٥ سنة.

والتركة الاستعمارية التي أبقتها في البلاد حين تركتها، لم تكن بالهينة ومايزال طابعها في الفكر السياسي العربي يلعب دوره. لقد عملت الآلة الاستعمارية على اكتساح البلاد العربية خلال ١٣٠ سنة بادئة بالجزائر ثم تونس ثم المغرب في حكم فرنسي مباشر. ثم اكتسحت انكلترا مصر والسودان منذ سنة ١٨٨٢.

واحتلت إيطاليا ليبيا في مطلع هذا القرن سنة ١٩١١ وسيطر الإنكليز بعد الحرب العالمية الأولى على فلسطين والأردن والعراق مكملين تطويق الجزيرة العربية من جهة عدن ومن جهة عمان والخليج. وأعطوا حسب قسمة (سايكس، بيكو) بلاد سورية الشمالية ولبنان لفرنسا.

وتشوش الفكر السياسي العربي وتضاربت الأفكار والمباديء فيه قبل أن يحزم أمره في اتجاهين:

- النضال ضد الاستعمار بالثورات والاضطرابات باعتباره الخطر المباشر.
- نصب مباديء الوحدة العربية كأمل مقبل باعتبارها الهدف الأبعد.

والعمل لها من خلال البناء القومي.

أما الآلة الاستعمارية فقد عملت على دمج الوطن العربي ضمن العالم الثالث وعلى استغلاله بعد الغزو الاحتلالي والتجزئة لمصلحة بلادها الأم. وأدخلت إلى

الوطن العربي الشتات اللغوي ما بين الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والأسبانية فمنابع الفكر للعرب متعددة أشتات. وأحكمت السيطرة على الجو الثقافي فلا ينال الثقافة إلا أبناء الباشوات والبكوات والبورجوازية العليا والإقطاعيون من الموالين والمتمولين. وأبقت التعليم الديني التقليدي على طرائقه الأولى في حين لم تتح الثقافة الأوروبية إلا لجماعات محدودة. ويكفي أن نعلم أن عدد من نالوا شهادة جامعية من السوريين في فرنسا لم يجاوز خلال ٢٥ سنة اثنى عشر شخصا: ثلاثة منهم للعلوم والباقي للفنون وللآداب والحقوق! وليس من طبيب واحد أو مهندس أو كهربائي! في حين كان طلاب المدارس الابتدائية يعرفون سلسلة اللويسات من لويس التاسع حتى لويس السادس عشر ويقرؤون عن مدام بومبادور! وحين كانت الظروف تجبر الاستعمار على التعاون مع الوطنيين في الحكم كان المستشار يقف من ورائهم، ويمضي دونهم مايشاء! واستغل الاستعمار كل أقلية دينية (مارونية، درزية سريانية، قبطية، علوية، يزيدية) وكل جماعة إثنية (كردية، آشورية، شركسية، بربرية) فجعلوا لها كيانًا كاملاً لتتضارب في مصالحها مع أكثرية الشعب. وجعل الاستعمار من الحدود التي وضعها هو نفسه بين الأقطار العربية حدودًا أقليمية وفكرية يتحارب أصحابها على طرفيها. وباسم الاقليمية والوطنية الضيقة أغلقت هذه الحدود بمختلف الحواجز حتى دون الكتب! مع أنه ليس من حد واحد فيها على الإطلاق سواء بين البلاد العربية بعضها مع بعض أو بينها وبين الدول الأخرى، وضعه عربي أو اشترك في وضعه عربي!

رغم هذا كله، قطعت البلاد العربية مرحلة ما بين الحربين العالميتين، والاتجاه القومي العربي عامة هو الأقوى في الشام والعراق. ولم تجد القومية السورية سوقًا رائجة في القطرين، وإن كانت ذات تنظيم متماسك، ولما كانت الشيوعية محرمة فقد كانت تتفشى في الأقليات الإثنية خاصة وتنتشر بين الفقراء سربًا وسراً على قلة. وكثيرًا ما يخلط الناس بينها وبين الاشتراكية فهي منها على فارق محدود. ولم يكن ثم من يفهم الفارق، وكانت تستغل الأحداث الخارجية (كحرب الإيطاليين

الاستعمارية للحبشة) لتثير على الاستعمار النقمة وتكسب المؤيدين، وإذا كان القومية السورية تجد صعوبة في فصل الشام إقليميًا عن باقي البلاد العربية فإن القومية العربية كانت سهلة القبول بما يقف وراءها من الأمجاد التاريخية واللغة وما تحركه من آمال القوة. وإذا كان الشمال الأفريقي يعاني الاستعمار الفرنسي المباشر وتقترن فيه في المغرب والجزائر وتونس فكرة العروبة مع الإسلام، فإنه لم يظهر فيه ما ظهر في المشرق (حيث تكثر الأقليات المسيحية) من قومية عربية ذات طابع علماني، وتيار ديني يتبلور بعيدًا عنها وقد وقف كثيرًا ضدها، وحاربها باسم الدين.

تحت النير الاستعماري واجه الفكر السياسي العربي في المشرق ثلاث مشاكل: (أو ثلاث عمليات اختطاف من أرضه):

١) مشكلة الأهواز العربية التي ابتلعتها إيران بدعم انكليزي. سرقها الشاه الصفوي من أصحابها على الخليج كرمي لآبار البترول ثم سرقتها انكلترا بالاحتيال، وسجلتها باسم الأسطول البريطاني. وسحقت هذه المشكلة فلم يظهر لها كبير أثر وشرد أصحابها.

٢) مشكلة الاسكندرونة وهي المحافظة الكاملة التي قدمتها فرنسا، وخلافًا لنتائج الاستفتاء فيها، عربون صداقة لتركيا كي لا تنحاز سنة ١٩٣٩ في الحرب العالمية الثانية (وكانت منتظرة) إلى جانب دول المحور. مقاومة القوميين العرب من حزب عصبة العمل القومي فيها لم تجد فتيلاً أمام الضغط والجيوش، وشرد حتى طلاب المدارس المتحمسون دون معيل أو سند في سورية.

٣) مشكلة الصهيونية وفلسطين، وهي المشكلة الكبرى التي شغلت العرب في القرن العشرين. ووقفت دون توجههم للتنمية أو لمتابعة النهضة القومية ووجهت مواردهم، حين استقلوا، لشراء السلاح والمغامرة دون استعداد بالحروب الفاشلة. بدأت المشكلة بنظرية انكليزية استعمارية لإيجاد مجموعة بشرية غريبة في البلاد العربية على الطريق إلى الهند. كان ذلك في القرن الماضي فلما تبلورت

لدى اليهود الفكرة الصهيونية واتجهت أفكارهم إلى فلسطين، دعمتهم انكلترا بوعد بلفور سنة ١٩١٧ ثم لما استولت على فلسطين أواخر الحرب الأولى جعلت همها تسريبهم إليها، ودعمهم بالأرض والسلاح للتوطن. واستطاعت رغم الثورات العربية والصراخ واللجان الدولية أن تجعل عددهم بعد خمس وعشرين سنة يرتفع من حوالي عشرين ألفا إلى ٦٥٠ ألفا. وأعطتهم ما يقارب ٥٪ من أرض فلسطين من أملاك الدولة.

غير أن السياسة الانكليزية التي لا تريد إيذاء مصالحها مع العرب وبترولهم بالدعم العلني لليهود الصهاينة لم تعجب المتطرفين منهم فنقلوا ولاءهم، في مؤتمر بلتيمور سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب الثانية إلى الولايات المتحدة، وراهنوا على دعمها، وكانت قوتها الضاربة تعطيها أكبر الأطماع في التوسع العالمي وبخاصة في اتجاه البترول العربي في العراق والخليج. وشعرت انكلترا أنها رغم انتصارها في الحرب خرجت منها ضعيفة مهلهلة فتخلت عن الانتداب على فلسطين. وفي الأمم المتحدة صوتت الهيئة بفارق صوت واحد على تقسيم فلسطين قسمين. حرب سنة ١٩٤٨ التي حاول فيها العرب إيقاف التقسيم أجهضتها التدخلات الاستعمارية والخيانات. وأعلنت الصهيونية في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ قيام دولة إسرائيل فاعترف بها رئيس الولايات المتحدة (ترومان) بعد دقيقة واحدة. واعترفت بها دول أخرى: الاتحاد السوفياتي، انكلترا، فرنسا، دول أميركا اللاتينية. وصارت أمرًا واقعًا، وأرغمت البلاد العربية المحيطة بفلسطين على عقد الهدنات مع الصهيونية بعد ذلك في رودوس...

- ٥ -

حين خرج العرب من نفق الحرب العالمية الثانية عاشوا عصرين متناقضين في وقت معًا ومتصارعين:

- عصر الاستقلالات التي تمت خلال حوالي عشرين سنة، وبروز الأمل

الوحدوي بإنشاء جامعة الدول العربية وحسب الناس معهما أن خروج الاستعمار سيملأ المستقبل وروداً، وتباروا في طرح الأفكار السياسية. على وجه الفكر السياسي كان هناك ثلاثة اتجاهات يمثلها: جماعة الإخوان المسلمين واتجاههم ديني إسلامي، وحزب البعث العربي ثم ثورة جمال عبدالناصر، وأفكارهما كانت في مقدمة الحركات القومية الكبيرة (العلمانية إن شئنا). وقد تبلورت فيهما أماني الناس حول ثلاثة مباديء (على اختلاف في ترتيبها) الحرية والاشتراكية والوحدة، وإذا اصطدم الأولون (الإخوان) بالناصرية فخمدوا إلى حين، فالاتجاهان الآخران ظلا في قيادة المرحلة سنين طويلة.

ـ عصر الإحباطات المتوالية في الوقت نفسه. بدأ ذلك بإعلان قيام اسرائيل وامتد على مدى أربعة حروب معها سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦، سنة ١٩٦٧، سنة ١٩٧٣. كانت فجائع متتالية الفصول والحلقات للفكر السياسي العربي وسلسلة انهيارات وهزائم للمباديء الثلاثة التي أعلنوها في الوحدة والحرية والاشتراكية.

(وذلك بهدم وحدة سورية ومصر، وتحويل البلاد إلى الحكم الدكتاتوري، وإفشال التجارب الاشتراكية).

وكان طبيعيا أن تصطرع القوى المحركة في الاتجاهين المتضادين، وفي هذا الصراع لعبت دورها عوامل شتى من القوى الداخلية والعربية والأجنبية، وكانت النتيجة انتصار قوي الإحباط والقهر، مما جعل الفكر السياسي العربي يرمي عنه مبادئه التي قضى السنوات الطوال في بلورتها ويفتش عن طريق جديد.

أزمة هذا الفكر هنا أساسها العميق، أنها البحث عن مبدأ ضمن المتغيرات الجديدة، كانت القوى المعاكسة أعنف وأعتى، واصطلحت فيها على العرب عوامل عديدة ليست كلها من صنع الامبريالية الحديثة، ولكن أخطاء ومفاسد داخلية وتناحرات مرذولة أعطت الفرص لانتصار القوى القاهرة. ولعل أهم المتغيرات هي أن العرب سبقوا مرة أخرى، بعد الجمود العثماني الأول، بكساح ثان ليس أقل أثراً

منه. هو الثورة التقنية (الثورة الصناعية الثانية) التي أذهلتهم (وأذهلت العالم معهم) بسرعتها الخارقة، بتفوقها التقني الهائل، بشمولها الكوني، بقدراتها الساحقة، وبما رافقها من وسائل الاتصال الآني والأقمار والصواريخ العابرة بين الأفلاك. انفجر هذا كله بشكل لم يعرفه العالم من قبل وفي عدة عقود من الزمن. ووضع في أيدي الدول المتقدمة قوى جهنمية ليس تحطيم الذرة سوى بعض آلائها. وليست هندسة الوراثة والتحكم في الذكاء البشري سوى بعض تطبيقاتها، وليست غزوات الفلك أو ثورة الاتصال سوى جانب منها.

فاجأ ذلك كله العرب وهم في مطلع استقلالاتهم فيما كانوا:

١) لم يسدوا بعد متابع الأمية عن ٦٠٪ من كتلتهم البشرية الصماء، فالطاقات الخبيرة والمؤهلة للفكر والابداع نزرة يسيرة العدد والعدة، وإذا أخذنا بالاعتبار فتوة الأمة العربية وأن ٤٥٪ منها دون الخامسة عشرة، واعتبرنا معها نساء المدن، وجدنا أن العاملين أصحاب الفكر لا يجاوزون ١٠٪ وهم الذين يجرون العربة، والباقون لا يعيشون العصر. ولكن عصورًا سالفة يرجع بعضها إلى ألف سنة سابقة. وتشكل للفكر العربي ما يشبه كرات الرصاص التي تربط بأرجل المغرقين في البحر.

٢) لم يرتبوا البيت العربي بحكومات رشيدة قوية. لقد انقض العسكريون في معظم الدول العربية على الحكم في انقلابات كثيرًا ما كانت عبثية. وأقاموا أنظمة اجتمع فيها النظام الاوتوقراطي العثماني والقائم على الاستبداد والحكم العسكري. (فالسيف والسياسة متلازمان) مع مظاهر النظام الأوروبي الذي يسمونه ديمقراطية وأحزابًا، واشتراكية. وأفرغوا هذا النظام من محتواه القانوني، وحشروا مكانه مفهوم الدولة القديم. أما حقوق الانسان وحرية الفكر والتعبير فليس في قواميس الحكام لها مكان. فهل نعجب إذا ضمر الفكر واختبأ كالقنفذ إذا كان خروجه يعني إطلاق الرصاص عليه؟

٣) وضع العرب كل أحمالهم وآمالهم في فترة الحرب الباردة في (عينة الخرج) الواحدة، في الاتحاد السوفياتي، فلما انهار قبل عشر سنوات خسرنا ماديًا في قضايا التسلح وفكريًا في ذبول وتهاوي الاشتراكية ركنين كانا من أعمدة الفكر السياسي. ضاع المحور فأقبلنا ندور في الفراغ.

٤) ركبوا المغامرات الحربية على مختلف الحدود بل حاولوا في المؤامرة العراقية ثم الأمريكية عمليات الاحتلال العسكري. أنفقوا أموال النفط الطائلة فيما لا طائل تحته، فصارت ديونًا عليهم بعد أن كانت سلاحًا، وبالرغم من أن الأصابع الاستعمارية لم تكن بالبعيدة عن هذه الأعمال فإن قصر النظر السياسي كان هو الذي يميزها ويسوقها، ونجمت عن ذلك جروح شقت العرب عربين، ودمرت المبادىء التي كانوا يستمسكون بها، وقعت حطيمة في التراب.

٥) فوجئوا مع الفراغ السياسي بظهور السلفيين والأصوليين، لا بشكل دعوة إلى الله بالتي هي أحسن، ولكن بالشكل الإرهابي، وبأقسى الرجعية الفكرية ويتساءل الإنسان أليس الحق معهم في هذا مادامت كل المثل العليا قد تحطمت أمام أعينهم؟ أليسوا ردود فعل طبيعية على كل ذلك الضغط الامبريالي الذي طوق العرب وسحقهم تحت الأرجل؟

٦) ويقاسي العرب رغم ضعفهم العلمي العام، من العملية العالمية في نزيف العقول. هجرة الأدمغة العربية قد تكون أوسع الهجرات لأن عمليات الطرد الداخلي (من عدم الاستقرار السياسي وقلة المردود، ونقص التسهيلات العلمية) يقابلها في دول المهجر (أمريكا، كندا، أوروبا خاصة) مراكز جذب قوية تستقطب الآن مئات الألوف من الأدمغة الخبيرة والجاهزة للعمل، ولا تتردد الدول المتقدمة في ابتلاعهم لأنهم خامات جاهزة للإنتاج. ولأنهم يوفرون عليها سنويا ما يزيد على ١٥ بليون دولار في إعداد الكوادر التقنية التي تحتاج. والخاسر الوحيد في هذا النزيف هي الدول الطاردة. ما توفره الدول العربية من العقول تختطفه الدولة

المتقدمة بالمجان.

٧) بلغ من ضعف الفكر السياسي العربي أنه لم يدرك إلا متأخرًا ورغم مئات المؤشرات أن العرب ما حاربوا إسرائيل مرة واحدة، وإنما كانوا يحاربون القوة الأمريكية من خلالها، وأنها ليست أكثر من دولة مرتزقة تعيش على بلايين الدولارات الأمريكية التي تدفع لها كل سنة لخدمة المصالح الأمريكية، كان المرتزقة أفرادًا فصاروا بظهور اسرائيل دولة تقوم في الشرق العربي مقام أي حاملة طائرات أمريكية وتمد العصا الغليظة في كل اتجاه كأي جماعة مرتزقة. والاتفاق الاستراتيجي معها كان قمة الربط بين الطرفين.

ولا يخفي لا اليهود ولا الأمريكيون هذا الواقع في كل مناسبة. كما لا يتردد اليهود في طلب الأجور الوافية على عمالتهم المكشوفة.

٨) مقابل هذا كله لم تدخر القوى الامبريالية وسعًا في تهديم جميع المشاريع التنموية أو العسكرية أو الفكرية التي تسمح للكيان العربي بإطلاق طاقاته (عارضت قيام السد العالي في أسوان، دمرت المفاعل النووي في العراق، هبطت بأسعار النفط إلى الحضيض، منعت النصر على العرب سنة ١٩٧٣، دمرت الوحدة بين سوريا ومصر، ثم لغمت الوحدات الأخرى كوحدة العراق وسورية، ووحدة سورية مع ليبيا، ووحدة المغرب العربي، ووحدة اليمنين، حرضت وأثارت الخلافات بين دول المنطقة كلما كان ذلك ضمن استراتيجيتها..).

وربما كان أوجع من ذلك أن الدول المتقدمة أشاعت بما تملك من وسائل الإعلام القاهرة ووسائل الاتصال والقوى قيم الاستهلاك في كل مكان، وقيم الفكر الغربي البراغماتي، فالعالم الثالث ينفق اليوم أضعاف حاجته من المواد الاستهلاكية لتظل مصانعها دائرة في دولها، ويصطنع البراغماتية وسيلة وغاية ضاربًا بقيم التعاون والأبوة والأمان المشترك والاقتصاد عرض الحائط.

هكذا يطل العرب على القرن الحادي والعشرين وليس في فكرهم السياسي

مبدأ واحد يعتصمون به ولا في أيديهم ثمالة قوة تدفع عنهم أي بلاء: الإحباطات التي تطوقهم تركتهم سجناء الكساح الفكري، وفي مركز العطالة من كل اتجاه مع المتغيرات الجديدة. الفكر الوحيد الذي أيدته قوى الامبريالية بقوة ضد الشيوعية أولا ليضربوه بعد ذلك ضربة ذاتية من داخله باسم التخلف هو الفكر الإسلامي. فبعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط السوفيات تحولوا من العدو السياسي إلى العدو الثقافي، ونصبوا الإسلام فكرًا عدوًا رجيمًا، وأقبلوا ينعشون فيه أقصى الرجعية العربية ليهدموه بقواه ذاتها. اعتبروه أقوى الأعداء وآخر الأعداء. وصنفوه في مطلع قائمة الإرهاب العالمي، ليبرروا ضربه على مدار الكرة بكل مكان، ولكنه على أي حال الفكر الوحيد الباقي قائمًا في الناس.

وبعد فلابد من وقفة أخيرة عند نقطة هامة تتناول البحث كله.

فما قصدنا أبدًا ونحن نذكر سلسلة الهزائم والانهيارات التي عانت منها الأمة العربية في هذا النصف الثاني من القرن العشرين إلا أن نحلل الأسباب ونلقي الضوء على العوامل المدمرة وليس أن نسد باب الأمل دون الغد. الغد ليس ملكًا دائمًا للقوى التي تتحكم اليوم في مغالق الدنيا. وإذا كانت الأمية من جهة ونزيف العقول من الجهة الأخرى يفترسان قوى العرب، وكانت الحروب الإسرائيلية أميركية في حقيقتها، أو كانت مشاريع النهوض والتوحد تهدم تارة بعد أخرى، أو كانت النظم ديكتاتورية تحكم بسيف جنكيز وأنفاسه، فليس ذلك كله باللعنة الأبدية ولا بالقدر المقدور ولا نتيجة الخلل في تكوين العقل العربي. وإنما هي ظروف مرت وتمر بها كل الأمم. ونخطئ كثيرًا إذا اعتبرناها لصيقة بنا إلى الأبد. وكما أتت بها ظروف محددة فستذهب بها ظروف أخرى من مثلها.

ومثل ذلك ما سبق ذكره من قبل. فإننا ماعنينا ولا يمكن أن نعني أن الظواهر التاريخية المتعلقة بالفكر العربي من تطبق زمني ومن جمود مملوكي - عثماني، ومن عمى عن المستقبل ومن قيم بدوية وتجارية بل ومن سيطرة التراث والاتباع للنص

والاتباع للنص هي طبائع أبدية في هذا الفكر. إنها نتاج عصور اقتضتها وليست من نسيجه التكويني. إنها ملامح حالات مرت ونتيجة طرق عيش وحياة عرفها العرب في فترة من الفترات وبقيت آثارها من بعدها لفترات تطول وتقصر، وهذا لا يمنع ولا يمكن أن يمنع أقسامًا وجماعات من هذه الأمة أن تتجاوزها إلى مستويات أخرى من مستويات العمل والفكر. مرة أخرى ليس ثم من لعنات أبدية ولا متخلفين أبديين.

وإذا كانت البداوة صفة المجتمع العربي إلى اليوم لأسباب جيوبوليتيكية، في الجزيرة أو ليبيا أو السودان أو المغرب فليس يعني ذلك أنها لصيقة بروحه وأن قيمها ستظل دائمة وإذا كانت قيم التجارة ميزة لبلاد المرور والعبور العربية فليس يعني ذلك أنها دمغت بها، مع تطورات العالم الحالية، فلامناص، وغياب النظرة المستقبلية إذا كان موجودًا اليوم فليس من الضروري أن يوجد غدًا. وما ذكرنا ذلك كله إلا لاستكمال وصف الجذور في الوضع الراهن للفكر العربي من خلال تاريخه الطويل وما يكون قد دخل عليه من المؤثرات.

بل نستطيع بث الفكرة أبعد من ذلك لنقول إن العقل العربي الذي أوجد الشعر الجاهلي واللغة العربية بكمالهما وفهم القرآن قد قام بذلك رغم البداوة.

والفكر الذي أبدع الفلسفة العربية وابتكر اللوغاريتمات والأرقام والجبر والمواد الكيماوية وعرف الطب وأبدع في الجراحة على يد ابن سينا والزهراوي وابن النفيس وفتح منافذ العقل مع ابن رشد هو الفكر نفسه الذي كان يسيطر فيه التاجر على المجتمع العربي، وبدهي أن الجمود السلجوقي ـ المملوكي كان حالة دفاع وأن التخلف العثماني كان من سياسة الدولة ومن طرقها في الإدارة وهي التي جرت علينا قدسية التراث غير المقدس.

أردنا أن نقول من هذا كله إن التغيير وتجاوز العقبات ليس دربًا مسدودًا إلى الأبد متى صحت عزيمة الإنسان على التغيير. وإنما نحتاج إلى مجموعة غير كبيرة

من ثوار الفكر يحركون هذه الآلات الخدرة في أعلى أعمدتنا الفقرية. يخرقون سقف التخلف الذي تراكم الصدأ عليه خلال أكثر من ٨٠٠ سنة لا عن طريق نقل تجارب الآخرين ـ كما لا نزال نفعل ـ ولكن عن طريق الانطلاق بتجاربنا الخاصة من صميم التراث والواقع. ولنا رصيد ضخم من الأدمغة النازفة يمكن أن تكون الصخرة التي نبني عليها الهيكل.

إن هذا يعيدنا إلى الفكرة التي بدأنا بها هذا البحث. وهي أنه ليس هناك أزمة فكر ولا أزمة قصور في العقل العربي. فالفكر دومًا في أزمة خلق. والعقل جهاز حركة دائمة لا تقف. وهو دومًا في أزمة تغيير واندفاع للجديد. وأزمتنا هي حالة حصار أوقفت الإبداع الفكري إلى حين، وجعلت الفكر يدور في حلقة مفرغة، فمن يكسر هذه الحلقة التي لابد أن تكسر ذات يوم؟ هنا السؤال.

في صغري، حين كانت الشيطنة همنا الوحيد، كانت تمر في حيّنا بين حين وآخر امرأة مربوعة تلبس ملاءة بيضاء، وتسدل على وجهها حجابًا لا فجوة فيه سوى ما تطل منه العينان، كانوا يقولون لنا: إنها تعبد الشيطان، وقد علمونا أن نحبسها فنأتي بقضيب، ونغافلها حتى إذا وقفت رسمنا بسرعة حولها دائرة. فتظل حبيسة فيها ترجونا بالتوسل والدمع أن نفك إسارها، حتى يتكرم واحد منا فيمحو بطرف حذائه جانبًا من الدائرة، وعند ذلك تتابع المرأة سيرها طليقة..

وأحسب أننا لسنا بحاجة إلى أكثر من طرف حذاء، فكري سحري هذه المرة، يمحو القيد الوهمي الذي يحبسنا، فمن تراهم ياترى أصحاب هذا الحذاء السحري؟

* * *

التعقيب د. محمد حسين غلوم - جامعة الكويت

بداية أجد صعوبة بالغة في التعقيب على ورقة أستاذي وأستاذ أجيال كاملة من الطلبة العرب في مشارق الوطن العربي الكبير ومغاربه الدكتور شاكر مصطفى. ويبدو أن منظمي هذه الندوة الغراء قصدوا من وضع الطالب أمام أستاذه حثّه على الاجتهاد ودفعه لإثبات نفسه. ولو كان الأستاذ شخصًا ليس بمقام الدكتور شاكر مصطفى لهان الأمر، أما ويجد المرء نفسه أمام أستاذ بهذا الباع الطويل من العلم والعمل فهذا والله من أشق الأمور وأعسرها على النفس.

ولقد استمتعت وأنا أقرأ الورقة التي تتناول «الأبعاد التاريخية لأزمة الفكر العربي المعاصر في ضوء المتغيرات الجديدة»، ليس لسلاسة أسلوب أستاذنا المعهودة فحسب، بل وأيضًا لعمق أفكارها ومفاهيمها ولاكتنازها الأصيل من الطرح. وما سنتذاكره سوية من ملاحظات هي ليست من باب «إثبات الذات» فأنا أمام عملاق لا يجارى كما أسلفت، وإنما تأتي تلك الملاحظات من باب إعمال العقل والفكر في القضايا الخصبة التي تناولها دكتورنا الفاضل. وهي فضلاً عن ذلك لا تنقص من قدر الورقة الرفيع وأصالتها.

نبدأ بملاحظتين منهجيتين أولاهما : أن المتتبع لورقة الدكتور شاكر مصطفى يعجز في العثور على تعريف لما هو المراد «بالفكر العربي» - موضوع حديثنا - سوى الإشارة إلى أنه في ظروف معينة (إثر انهيار الدولة العثمانية تحديدًا) قد حزم هذا الفكر أمره في اتجاهين : «النضال ضد الاستعمار بالثوارت .. ثم نصب مبادئ الوحدة العربية كأمل مقبل باعتبارها الهدف الأبعد، والعمل لها من خلال البناء القومي» - ص ١٨، وإنه نتيجة لعصر الاستقلالات - كما يسميها - وإحباطاتها المتكررة المتمثلة بهزائم (٤٨، ٥٦، ٦٧، ٧٣) فإن هذا الفكر قد اضطر أن «يرمي عنه مبادئه التي قضى السنوات الطوال في بلورتها ويفتش عن طريق جديدة». ويظن القارئ للوهلة الأولى أن ما يقصده الدكتور شاكر مصطفى بالفكر العربي في هذا المقام هو الفكر القومي، إلا أنه سرعان ما يصطدم بما يكتبه أستاذنا الفاضل من أن هذا الفكر قد توافد مع جملة أفكار أخرى مع الاستعمار وبالذات في العشرينيات والثلاثينيات مع وصول الفاشية والنازية. ونحن نتساءل : كيف يكون هذا الفكر العربي الذي اتخذ محاربة الاستعمار والوحدة العربية شعارًا له كيف يكون هذا

الفكر وافدًا مع الاستعمار وهو في نفس الوقت محاربا له!! ثم إن الكاتب قطعًا لا يقصد بالفكر العربي الأصولية الإسلامية التي لم «تفد مع الاستعمار» والتي هي «بنت الأرض العربية». غير أن هذا الفكر لا يروم إقامة الوحدة العربية ولا يهتم بالبناء القومي أصلاً. فهو يهتم في هذا المجال بتوحيد المسلمين، بغض النظر عن خلفياتهم القومية على قاعدة العقيدة الدينية. هكذا يتركنا أستاذنا الفاضل تائهين من أول الطريق!!

أما الملاحظة المنهجية الثانية فتكمن في أن الدكتور شاكر مصطفى لا يعترف ابتداءً بوجود أزمة في الفكر العربي. «فالأزمة موجودة دومًا وأبدًا. والسؤال ـ كما يقول ـ هو عن عطاء الفكر، عن تدني إنتاجه، عن السبب في محدودية آفاقه وتقزم إبداعه». غير أن ما يورده بعد ذلك لا يستقيم مع هذه المقدمة التي انطلق منها، إذ يقول : «هكذا يطل العرب على القرن الحادي والعشرين وليس في فكرهم السياسي مبدأ واحد يعتصمون به، ولا في أيديهم ثمالة قوة تدفع عنهم أي بلاء» ويضيف مواصلاً إن «الإحباطات التي تطوقهم تركتهم سجناء الكساح الفكري، وفي مركز العطالة من كل اتجاه مع المتغيرات الجديدة». إذن، السؤال الذي يثور هنا هو : ما دمنا في وضع الكساح الفكري ألا يعني ذلك أننا في أزمة؟

إن الأزمة هي في نضوب الفكر عن إعطاء حلول على الصعيد النظري لمشكلات الواقع المتغيرة. وهو ما تمر به تيارات الفكر جميعًا، السائدة في المجتمع العربي من : قومية وأصولية وإشتراكية، فالتيار القومي لم يستقر إلى الآن على اتفاق مثلاً حول التعامل مع الدولة القطرية ذات الحدود المرسومة وذات السيادة وما يستتبع هذه السيادة من حرية مطلقة في رسم سياستها بما يتناسب مع مصالحها الخاصة التي قد تتعارض مع المصالح القومية العليا. ثم إن هذا الفكر لم يحدّد أصلاً ما هي المصلحة العربية، وكيف يمكن أن تتحقق تلك المصلحة ضمن آلية واقعية!! وكانت تلك المسائل وغيرها مثار خلاف حاد أثناء فترة الاحتلال العراقي الغاشم للكويت.

أما التيار الإسلامي (وليس الإسلام) فإن وضعه أصعب على الصعيد النظري، فهو يرمي ـ وهو قاب قوسين أو أدنى من القرن الحادي والعشرين ـ يرمي إلى بناء دولة إسلامية بنفس مواصفات الدولة الإسلامية في بداية انطلاقة الدعوة دونما اعتبار إلى التغيير الهائل الذي أصاب الفكر والواقع سواء بسواء، ودون إعمال العقل

في النصوص ليستخرج منها ما يواكب ما وصل إليه البشر من تقدم في الحقوق والامتيازات. دولة لا تؤمن بالمواطنة الحقة المتساوية بين أبنائها، وهو ركن الاستقرار السياسي في هذا العصر. وأنى لمفكري هذا التيار الأصولي بالتوصل إلى اجتهادات خلاقة، وهم ما فتئوا يختلفون حول تحديد غرة رمضان والأول من شوال في عصر تجوب فيها الأقمار الصناعية عنان السماء!! ومن الطريف في هذا الصدد أن الملك فيصل حاكم العراق الأول في مذكرته الإصلاحية المشهورة التي وضعها لتطوير «المملكة العراقية» يذكر في صدر النقاط التي يقترحها لإدخال الطمأنينة إلى نفوس الشيعة هي : «إعطاء التعليمات إلى قاضي بغداد أن يسعى لتوحيد الصيام والإفطار وهذا ممكن شرعا» كما يضيف فبالله عليكم : هل حصل أي تطور في هذا الشأن منذئذ؟

أما التيار الاشتراكي فلا حاجة بنا للحديث عن أزمته ومأزقه، ذلك أن انهيار الكتلة الاشتراكية بشكل لم يكن أحد يتنبأ به، حتى أشد المعادين لها، أقول إن انهيار ذلك المعسكر كاف لبيان أزمته.

ألسنا والحال هذه في أزمة بل أزمة عميقة؟ وإذا كانت هذه الحالة يسميها دكتورنا الفاضل بحالة مخاض فإنني أخشى أن تظل مخاضًا دون ولادة!!

أما وقد فرغنا من ملاحظتينا المنهجيتين، فإننا نلتفت قليلاً إلى مضمون أطروحات الورقة، مركزين على محور واحد اختصارًا للوقت ودرءًا للتشتت، وهو محور مثير للجدل، وأقصد به علاقة الغرب بالجذور التاريخية لأزمتنا الفكرية. ونستطيع تلخيص الأفكار الواردة في هذا الشأن بالتالي :

١ ـ أن الغرب خلق حالة التجزئة.

٢ ـ أنه وقف ويقف أمام أي حالة وحدة وهو مسئول عن هزائمنا الرئيسية.

٣ ـ وهو الذي ألغى الخلافة ليضعف الإسلام.

٤ ـ وأن الغرب هو الذي خلق حالة التعصب الديني ليضرب الإسلام من الداخل.

ونود أن نقف عند كل نقطة من تلك مناقشين:

أولا : يقول الدكتور شاكر مصطفى «وجعل الاستعمار من الحدود التي وضعها هو نفسه بين الأقطار العربية حدودًا إقليمية وفكرية يتحارب أصحابها على طرفيها». إن الكلام هنا يصدق على وضع الإشارات والعلامات الفارقة عبر

الصحاري العربية كما فعل اللورد (كرزون حاكم الهند الإنجليزي) في مؤتمر العقير حينما خط الحدود النجدية العراقية في عام ١٩٢٢ مثلا. إلا أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدق على تلك الكيانات التي نمت عبر عشرات القرون مكوّنة مجتمعات متشكّلة بذاتها من حيث الثقافة الفرعية واللهجة والنسق الاجتماعي المتميز نسبيا.

وعليه، فإن مصر والعراق وعمان واليمن مثلاً لم تنشأ بقرارات من المستعمر، وإن خط هو حدودها ولازال البعض منها يخط إلى الآن.

هنا عامل لا دخل للإنسان فيه «لم يلتفت إليه علميًا وقوميًا في الوعي العربي بدرجة كافية» كما يشير الدكتور محمد جابر الأنصاري في عمل مميز ـ وهذا العامل هو القطيعة المكانية التي «تتمثل في دور الفراغات المكانية والفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية عمرانيًا وسكانيًا وبالتالي مجتمعيًا وسياسيًا في الماضي إلى الحاضر». إن هذه الفراغات الصحراوية الخالية من أي حياة ـ يقول الأنصاري محقا ـ «قد منعت نشوء نسيج حياتي عضوي بدورة تفاعل واحدة ومتكاملة في المنطقة العربية لمجتمع موحد ولدولة موحدة ثابتة، متواصلة منذ القدم إلى اليوم» .. مما أدى إلى تفريخ «التعدديات العشائرية والمذهبية والإقليمية المحلية المتباعدة والمتنافرة التي غدت مع تراكمات التاريخ كيانات مختلفة قائمة بذاتها» والكلام للأنصاري.

ثم أليس استتباب الأمن والاستقرار حسب الوضع السياسي القائم في منطقتنا هو ما يتماشى حقًا مع مصالح الغرب، وبالتالي فإن مقولة إن الغرب يثير المشاكل مقولة تحتاج إلى برهان؟ ما هي مصلحة الغرب (دون أن أبرئه دائما) أقول ما هي مصلحة الغرب في إثارة الخلافات بين بلدين عربيين كالبحرين وقطر مثلا وهما تاريخيًا من أصدق أصدقائه؟

ثانيا : إن أحد الأبعاد التاريخية لأزمتنا أن الغرب يقف ضد أمانينا القومية في الوحدة بعد أن جزّأنا فضلاً عن وقوفه ضد مشاريعنا التنموية. يذهب الدكتور شاكر مصطفى إلى أن القوى الإمبريالية لم تدخر «وسعا في تهديم جميع المشاريع التنموية أو العسكرية (لاحظوا جميع) أو الفكرية التي تسمح للكيان العربي بإطلاق طاقاته»، ثم يسرد جملة من تلك المشاريع التنموية والوحدوية أود أن أقف

عند إحداها قليلاً، ألا وهي الوحدة العراقية السورية عام ١٩٧٩. هل حقا أن الاستعمار هو الذي خرب تلك الوحدة، أم أننا نستخدم الاستعمار كسبب مسبق وجاهز لتفسير كل إحباطاتنا دون أن نجبر أنفسنا على البحث والتقصي في الأسباب الحقيقية التي ربما كانت من صنع الاستعمار والإمبريالية. ثم أين ذلك من تشريح أستاذنا الفاضل لما يسميه «بعصر الاستقلالات» الذي انقض فيه العسكريون ـ كما يقول ـ في معظم الدول العربية على الحكم في انقلابات كثيراً ما كانت عبثية. وأقاموا ـ والكلام للدكتور ـ أنظمة اجتمع فيها النظام الأتوقراطي العثماني القائم على الاستبداد والحكم العسكري، مع مظاهر النظام الأوروبي الذي يسمونه ديمقراطية وأحزابا اشتراكية، وأفرغوا هذا النظام ـ من كل محتواه القانوني. أقول ما هو دور هذا العامل في صنع حدث تاريخي مثل فشل الوحدة السورية العراقية، أم أن الحديث عن الاستعمار وأفاعيله أسهل «وكفى الله المؤمنين القتال»!!

ثالثا : إذا كان الاستعمار قد حطم وجودنا المادي عبر التجزئة وغيرها فإنه كذلك حاول تحطيم بنيتنا الروحية عبر إلغاء الخلافة الإسلامية، التي كانت «الضربة الأخيرة لقتل الفكر الإسلامي وضرب مقاومته» حسبما يقرر أستاذنا الدكتور شاكر مصطفى. إن الحقائق التاريخية تخبرنا بأن الرجل الذي ألغى الخلافة عام ١٩٢٤ (وهو مصطفى كمال أتاتورك) هو الذي قاد المعارك الشرسة ضد القوى الغربية في مضيق الدردنيل ثم في وسط الأناضول، وهو إن كان فكره غربيًا علمانيًا إلا أنه كان من أعدى أعداء تلك القوى الغربية بالذات بريطانيا وفرنسا وروسيا وأخيرًا اليونان، وأن الخليفة العثماني القابع في إسطنبول كان في أحضان تلك القوى!! ثم هل حقا أن القوى الاستعمارية كانت تريد إلغاء الخلافة الإسلامية؟ أو لم تأمر تلك الخلافة بضرب أحد أنشط الحركات الدينية في العصر الحديث حين أوعزت إلى والى مصر محمد علي بالقضاء على الحركة الوهابية حيث دك معقلها في عام ١٨١٨ م، ثم لتتآمر تلك الخلافة بالتعاون مع الغرب على إنهاء نفوذ محمد علي نفسه في الشام والجزيرة وحصره في مصر عام ١٨٤٠م منهية تجربة كان يمكن أن تكون «يابان» أخرى في المنطقة ومهدا لوحدة عربية حقيقية. ثم ألم تحاول الدول الغربية فيما بعد خلق خلافة إسلامية من أحد الزعماء العرب؟!

رابعا : وإذا كان الغرب قد ألغى التجسيد السياسي للإسلام بإلغاء الخلافة فإنه

حاول أيضًا خلق إسلام متطرف. فبعد أن استخدموه ضد الشيوعية يؤكد الكاتب «تحولوا من العدو السياسي إلى العدو الثقافي، ونصبوا الإسلام فكراً عدواً رجيمًا، وأقبلوا ينعشون فيه أقصى الرجعية العربية ليهدموه بقواه ذاتها. اعتبروه آخر الأعداء وصنفوه في مطلع، قائمة الإرهاب». لا يقدم لنا أستاذنا الفاضل أي دليل تاريخي عيني يمكن الاستناد إليه للمحاجّة والبرهنة، ورغم أنني لست من أنصار هذا الفكر، فإن التيارات المتطرفة والمتشددة في الحركة الأصولية إنما استمدت اجتهاداتها الفكرية المتشددة من سيد قطب، الذي قضى معظم حياته في السجون معانيًا أشد العذاب من «عصر الاستقلالات» التي شخصها الكاتب وكان نهاية مطافه الإعدام. ولا شك أن قدرًا من تشدد أفكاره إنما مرجعه جو العسف والتعذيب والتعامل اللاآدمي الذي لاقاه. لقد أغرت تلك الأفكار المتشددة القطعية وسيرته الأسطورية تلك الحركات المتشكل أغلبها من الشباب، كما أغرت سيرة جيفارا القوى الثورية الشابة. أما حشر الاستعمار في كل صغيرة وكبيرة واتخاذه سببًا رئيسيًا لتفسير كل ظواهر حياتنا السلبية فهو ليس من العلم في شيء، فهذا التحليل يغري العوام الذين يبحثون عن الأسباب البسيطة والواضحة، والوقائع التاريخية أكثر تشابكًا وتعقيدًا، كما لا يخفى عليكم.

أخيرًا، إن أحد أبرز أوجه أزمتنا الفكرية تلك الصيغ الجاهزة، تلك العلامات التجارية التي نركبها على الأحداث سلفًا وندعى أننا نقوم بالتفسير، وأبرز تلك الأسباب هي التعلل بالاستعمار. ونحن لا ندعي قط أن الاستعمار والغرب لم يخلقا لنا مصائب لازلنا مبتلين بها، بل ما نطالب به هو التفسير العلمي الصحيح الذي تنسب فيه النتائج (الأحداث) إلى مسبباتها الأصلية، فإن كان المسبب الاستعمار فليكن، أما الانطلاق من تلك الأسباب الجاهزة القبلية ومن «نظرية المؤامرة الغربية» فهو وإن صح لإثارة «نخوتنا» الوطنية والقومية، فإنه لا يصلح أساسا للتفسير التاريخي السببي إلا بناء على أدلة لا تدحض.

* * *